أرض النفايات

علي عبد الأمير صالح

تفشّى الموتُ بين الحيوانات، وهاجرت الطيورُ والنوارس إلى مناطق قصية لا يعرفها إلاّ اللّه، وأضحت الأبقار والجواميس والخراف والماعز على حافة الهلاك، لولا أن تداركت السلطات المحليّة الأمر فأصدرت تعليمات واضحة تقضي بالسماح لها بدخول المساحات الخضر والحدائق والمنتزهات، فَخَلَتْ هذه من العشّاق وطالبي الراحة ومحبّي الهواء الطلق...

في تلك الأثناء ضمَّ الموت أصابعه الدامية على بلدتنا، وحاصرت مخالبهُ القاسية أعناقنا السمر. كنّا نعيش عيشة قاسية، نلهث وراء كسرة الخبز، ونلهث وراء قنينة الدواء. لكن بعضنا تنهّد وقال بارتياح: «هوذا الموت قد جاء أخيراً ليخلّصنا».

وذات مساء صيفي، كنت أقرأ لأبي - الذي لم يقرأ شيئاً غير القرآن الكريم والأحاديث النبوية وسير الصحابة - بعضَ الصفحات من **جمهورية أفلاطون**، وإذا بأبي يلفظ أنفاسه. حلّت بي الكارثة إذاً. شعرت أنّ صاعقةً نزلت عليّ من السماء. ربي، لِمَ أخذت روحه في هذه السنة الرهيبة، ومن أين سأسدّد تكاليف الدفن؟ من الذي يقرضني المال، ومن الذي يسدي لي العون في زمن تتقطّع فيه أنفاس النّاس بغية الحصول على لقمة العيش؟

وقبل أن تتفسّخ جثّةُ والدي، تقدّمتُ بالتماس إلى السلطات الصحيّة أطلب فيه حفظ جثمانه فترةً من الزّمن في إحدى الثلاّجات ريثما أستطيع توفير المبلغ اللازم للدفن وأجور نقل النعش إلى المقبرة التي تبعد مئات الكيلومترات عن بلدتنا. كانت الثلاجات قد غصّتْ بجثث الموتى، الذين يلفظون أنفاسهم في الأزقّة التي غاب عنها رجال الشرطة... موتى مشردّون قد يكون مآلهم قاعات التشريح في كليات الطبّ.

وفي بحر يوم واحد، جاءني الردُّ سريعاً: «تمّت الموافقةُ على حفظ جثّة والد المومأ إليه، على أن لا تتجاوز فترةُ الحفظ أسبوعين». وفعلاً تمّ حفظ جثمان والدي في ثلاجة إحدى المستشفيات الواقعة في أطراف المدينة، وأُرغمت على أن أبتسم مئات الابتسامات الكاذبة، وأن أربّت على أكتاف العديد من المعتمدين والموظفّين، وامتدحَ رقّة العديد من الممرِّضات وأنوثتهن كي أسهّل عملية الحفظ. لكنّي فوجئتُ أنّ ثمّة مخلوقات عجيبة يجري نقلها من علب زجاجية مليئة بمحاليل مضادة للتعفّن إلى إحدى الثلاّجات، وتبيّن لي أنّ تلك المخلوقات ما هي إلاّ أجنّة مشوّهة أو أجنّة إسقاطات.

*

رحت أجوب الشوارع والأزقّة بحثاً عن أصدقائي القدامى ومعارفي. مررتُ بشارع خلفي تمرّ في وسطه ساقيةُ ماءٍ آسنٍ، وتتقابل على جانبيه دورٌ ذاتُ طابق واحد.. كان أخي الأكبر يأخذني، عصرَ كلّ يوم، على درّاجته الهوائية إلى دار العجوز التركمانية في هذا الشارع.. وكانت دارها واقعةً إلى اليسار قبالةَ دارٍ أُخرى نصف مهدّمة. وكنت آنذاك في السابعة من عمري، نحيل الجسم، بارز العظام، أجلس قبالة العجوز التي تلفّ

رأسها بفوطةٍ بيضاء من قماش خفيف، وتضع اللبخة العشبية على خدّي الأيمن، فوق موضع القرحة الصديدية، تهزّ رأسها وتبتسم، وتنصحني بالمحافظة عليها. وكانت تلك قرحة لعينة، أورثتني ألماً شديداً، وجعلتني عرضة للتساؤل والسخرية.

سألتُ عن المرأة التركمانية، فأنبأوني أنّها الآن تعاني من الشلل النصفي، وتجلس على كرسي متحرّك، يدفعها كلّ يوم حفيدُها الحليق الرأس على ضفّة النهر كي تتذكّر أيامَ شبابها حين كانت زوارق الصيد تأتي محمّلةً بالأسماك، وتتذكّر ضحكات الصيادين: أذرعَهم القوية، صدورهم العريضة، عضلاتهم البارزة التي نُقشت عليها رسومٌ وأحرف وكلمات بطريقة الوشم.

*

ومررتُ من شارع الأطباء، ورفعت بصري إلى نافذة عيادة طبيبة الأسنان الشابّة. كانت في الخامسة والعشرين، مبرومة الجسد، ذات شعر كستنائي مجعّد. وكنت أجلس على كرسيها المائل قليلاً إلى الخلف، أستسلم لآلتها الاستكشافية المدببة وهي تفتّش عن الضرس الذي سبّب لي وجعاً لا يطاق. وبعد أن تزرقني بتلك الحقنة اللعينة أتصنّع الإغماء، فتردّ رأسي إلى الخلف.. تجلس جنبي.. رأسي قريب من الأرض.. فأستسلم للنشوة المنداحة فيّ وأنا أتنشّق عبق جسدها الباذخ، وأستقبل عصير أنوثتها الطاغية وإخاله يقطر في فمي مثل حبّات مطر لذيذة. هل كانت تتعمّد الإثارة؟ أفتح عينيّ وأغمضهما، أحدّق في وجهها الأبيض الصافي ونهديها المكتنزين.. وحين أفيق من إغماءتي أهتف كالحالم، إشارةً منّي إلى نهديها النافرين اللذين كدت أمد يدي لأمسهما: «الكمثرى». وتسألني باستغراب: «أي كمثّرى؟» فأرد عليها متصنّعاً الاعتذار: «عفواً، دكتورة، كنت أحلم بالكمثرى».

النافذة مسدلة الستائر، ولا أعرف إن كانت في عيادتها أم لا، لكنّني اكتشفت أنّ اسمها غير موجود في اللوحة الخشبية العريضة في مدخل العمارة، كما لم أعثر على إعلان النيون، الذي كان يشع باسمها الجميل، المكتوب بخطّ الرقعة.

*

كان يوماً من أيّام الصيف الحارّة حين توقفتُ لأروي ظمئي.. شربتُ الماء من حنفية في حديقة ثانوية البنات.. كانت صديقتي الشقراء تعطي كتبها ودفاترها إلى صاحبتها، وتلحّ عليّ بأن أصطحبها إلى السينما. وكانت تدخل صالوناً للحلاقة النسائية، فتخلع تنورتها المدرسية وترتدي سروال الجينز الأزرق.. صديقتي الشقراء مولعة بالأفلام العاطفية، تشتري لي المرطّبات قبل دخولنا صالة السينما.. وما إن تُطفأ الأنوار حتى تبدأ بحك ساقها بساقي وتضع رأسها على كتفي. وحين التحقتْ بجامعة بعيدة، لم أعد أراها إلاّ في محطّة القطار المزدحمة حيث تتوجّه إليها قبيل بدء العام الدراسي أو بعد العطلة الربيعية.

في السنوات التالية رأيتها. كدت لا أتعرّف عليها؛ فقد أصبحتْ ممتلئة الجسم وشعرها مقصوصاً بهيئة «كاريه». وبدت عيناها وقحتين جريئتين، وفقد وجهها براءته وبياضه، وأصبحت بشرتها تميل إلى سمرة خفيفة. حاولتُ اللحاق بها، لكنّها دخلت العربة مع الزحام.. وحين انطلقتْ صفّارة القطار وبدأت العرباتُ تقعقع على السكة، انسحبتُ إلى الوراء ووقفت إلى جوار كشك مغلق. وحين التفتتْ إليّ ميّزتني في الحال، فلوّحتْ لي بمنديلها الصغير وابتسمتْ ابتسامةً خفيفة.. لم أخمّن، حينذاك، مشاعرها نحوي.. ولم أرها بعد ذلك اللقاء العابر، الصامت.. ومازلت حتى الآن، أتخيّلها تلوّح لي بمنديلها من نافذة القطار، وتبتسم لي ابتسامة مشوبة بالحزن والعاطفة.

عقب تخرّجي من الجامعة أصبحت مأساتنا لا تطاق، وازداد عددُ المشرّدين واللُّصوص وقطّاع الطرق واللوطيين والبغايا. كلّ ما كان يشغلني إبّان تلك الحقبة هي التغيُّرات البادية على سحنات أبناء بلدتنا؛ فقد شرعت البسماتُ تختفي رويداً رويداً، وأمست ابتسامةُ صديقتي التي لوّحتْ لي من نافذة القطار تنطق بالمرارة التي لم يسبق أن أحسست بها طوال سني حياتي.

*

كنت أزور المستشفى بين يوم وآخر؛ فقد خشيت على جثّة والدي من الضياع. لكنّني فوجئت بعد ثلاث زيارات بأن التيّار الكهربائي كان ينقطع عن المستشفى باستمرار وعلى مدى ساعات طوال، وأن المولدة الكهربائية الوحيدة عاطلةٌ عن العمل منذ زمن طويل. وحين بدأت بالتفكير بصورة جديّة في انتشال جثّة والدي من العفن الذي وضعتها فيه وبإيجاد حلٍّ عاجل لمسألة الدّفن، بوغتُّ في أحد الأيّام، وكان اليوم السادس، بأنّ إدارة المستشفى استحصلتْ موافقة أصولية على دفن الجثث المتفسخة، وبينها جثّة والدي، في الصحراء.

والواقع أنّها لم تكن صحراء حقيقية، بل كانتْ أرضاً بوراً لم يتمّ استصلاحها، اتخذتها السلطاتُ المحليّة موقعاً

لرمي النفايات. وهكذا أصبحت الجثث البشرية، في السنوات الأخيرة من قرننا العشرين، شيئاً من النفايات.

أمسى والدي نفايةً.. يا للعنة!. والدي يتحوّل إلى نفاية.. أي جريمة لا تغتفر هذه التي يرتكبها العالمُ ضدّنا!. ما أبشع أن يُدفن آباؤنا في أرض النفايات!. ضاع والدي هناك بين هياكل السيارات الصدئة، بين سقط المتاع الذي تلفظه البلدةُ على مدار اليوم، على مدار السنة.. ضاع والدي بين أجنّة الإجهاضات... إجهاضات بغايا ما بعد الحرب.. بغايا اهتدين إلى أرض النفايات من سنوات عدّة.

من الذي دفنه؟ ربما لم تمسسه يدٌ بشرية.. أيّ رجلٍ يجرؤ على مسّ جثّة بشريّة متفسّخة؟ الحفّارة هي التي حفرت القبرَ الجماعي.. والكاسحات هي التي رفعت الجثثَ والقتها في الحفرة الواسعة، ثم ردمت الحفرة، وهي التي هالت التراب فوق جثث موتانا.. وبعدها جاءت الجادلات وساوت موتانا بالأرض.

أردتُ نبش قبر والدي، القبرَ الجماعي، وأن أنتشل جثمانه من تلك البقعة من الأرض. كنت أمنّي نفسي بالعثور على تلّة صغيرة أدفنه فيها كيلا تدوس عليه عجلاتُ المركّبات المحمّلة بنفايات البلدة، ولكيْ أستطيع زيارته بين حين وآخر حين يعصف بي الحنين. إلاّ أنّ موجة الأمطار الغزيرة التي اجتاحتْ بلادنا من أقصاها إلى أقصاها حالت دون تحقيق رغبتي هذه. كان الوقت ليلاً: سمعت نواحاً مؤلماً يقطع نياط القلب.. اقتربتُ.. كانت امرأة متلفّعة بالسواد تشعل شمعة. ومع أنّ الضوء كان شحيحاً فإنني استطعتُ تمييز صاحبة الشمعة من خلال هيئتها الخارجية وبعض ملامح وجهها الأسمر. كانت معلمةَ النشيد في مدرستي الابتدائية، وكنتُ أحبّها حبّاً جمّاً وأتمنى أن تأتي إلى صفّنا في السنوات اللاحقة. كانت تجري هنا وهناك حول حلقات الطلبة المتهلّلين، تصفق بيديها مرحةً، رافعةً صوتها بالغناء: «الثعلب فاتْ فاتْ، والذيل سبع لفّات، والدبّة وقعتْ في البير، وصاحبها واحد خنزير».. جاءت معلّمتي إلى موقع رمي النفايات، حيث ترقد جثّة زوجها مع جثّة والدي.. بكت بحرقة.. اقتربتُ منها وقلت بصوت دام: «أما يكفيك نواحاً يا معلّمتي العزيزة؟» التفتتْ، رفعتْ بصرها إليّ، ذرفت دمعتين ساخنتين ثم أخفت وجهها بيديها وتابعت النواح.

في تلك الآونة شعّ خطٌ متعرّج في السماء المعتمة وسمعنا رعداً هائلاً أدخل الفزع إلى فؤادينا.. وبعد دقائق انهمرتْ سيولُ المطر بشكل لم يسبق له مثيل.. فما يكاد المرء يستبشر بزوال كتل الغيم حتى تدلهمّ السماءُ ثانيةً وتبدأ موجة أخرى من السيول.

عاشت بلدتنا أياماً رهيبة، طفحت فيها مياهُ المجاري، وتعطّلت حركةُ المرور، وصرنا نرى البط والوزّ ودجاج الماء يسبح منتشياً، والنّاس يخوضون في الأوحال. وهكذا ضاع والدي من جديد. في كلّ القصص التي سمعتها وقرأتها في طفولتي وصباي كان الأولاد والبنات هم الذين يضيعون، لكنّ الأمر يختلف في حكايتنا هذه. والدي هو الذي ضاع. لم أضع أنا، لم يضع أخي، لم تضعْ أختي. أبي هو الذي ضاع.

صرت أرى أطفالاً بيض البشرة، سمراً، سوداً. أطفالاً يموتون على أرصفة الشوارع الرئيسة التي غاب عنها رجالُ الشرطة، وجوههم شاحبة صفراء كالخريط[1] [هل كانوا مصابين باليرقان، بالتلاسيميا[2]؟]، أطفالاً نحيلين منتفخي البطون، بوجوه ذابلة لم يستطع المرض إخفاء ملامحهم العربيّة، ولم يستطع حجب ملامح آبائهم وأمهاتهم الذين شنقوا أنفسهم بالحبال أو الجوارب، أو ماتوا غرقاً في النّهر، أو أحرقوا أنفسهم، أو فرّوا إلى الصحراء كيلا يشهدوا على موت أولادهم، فلذات أكبادهم، فوق أرصفة الشوارع الآثمة وفي الأزقّة القذرة النتنة.

رأيتهم ممدّدين كيفما اتّفق، ينامون نومتهم الأبدية، ينامون فرادى وجماعات، ينامون باتّساق، ينامون باضطراب، ينامون متعاكسين، مثلما كانوا ينامون في أسرّتهم الضيّقة في السنين الخوالي. ينامون بأسمال رثّة هي كلّ ما تبقى لهم من متاع الدُّنيا: أسمال ملطّخة بالمخاط، بالدم، بالبراز، بعصير الفواكه التالفة والطماطم الفاسدة التي التقطوها من أرض السوق، أسمال منقوعة بالعرق والدموع، منقوعة باللّعاب الذي سال من أفواههم حين شاهدوا فاكهة السوق الطازجة.

غالباً ما يعطّلون حركة السابلة يوم الجمعة، وهو العطلة الرسميّة لمؤسسة التنظيف. أمرُّ من هناك، أصعد الرصيف تارةً ثم أنزل منه تارةً أخرى ماشياً الهوينا، خافضاً بصري، محدّقاً في الإسفلت اللزج.

هذه الجثث الصغيرة أورثتني آلاماً مبرحة، ألقت في

(١) الخريط: مادّة صفراء، صلبة أو هشّة، تستخرج من خلاصة نبات البردي.
(٢) التلاسيميا: فقر دم حوض البحر الأبيض المتوسّط.

قلبي الرعب، حوّلتني إلى رجل عصابي هستيري، بعد أن كنت بارد الأعصاب وقوراً.

أجثو، الآن، على ركبتيّ الجريحتين، أردُّ أثوابهم على أجسامهم، أعدّل من وضع رؤوسهم. من يراني أفعل ذلك يحسبني معتوهاً (فما معنى أن يلجأ رجل مثلي إلى هذه الأفعال حين تكون نهايتهم أرضَ النفايات أو قاعات التشريح؟) أو قد يحسبني أباً يغطّي أولاده أناء اللّيل حين تكون أمّهم في المستشفى، أو جدّاً يتفقّد أحفاده حين يكون آباؤهم وأمّهاتهم قد رحلوا إلى العالم الآخر...

تمنيت أن أعثر على صبي في النزع الأخير، أن أنتشله من براثن الموت، أن أحمله بين ذراعيّ وأضمّه إلى صدري، وأغدق عليه قبلاتي.. أن أسقيه ماءً بارداً من طاسة أحد الشحّاذين.. أو أن أجعله يموت في حضني، كي أُشعره - وهو يودِّع عالمنا القاسي - بدفء الحضن البشري، وحرارة اليدين البشريتين، كي أجعله يسمع وجيبَ قلبٍ بشريٍّ يضمر له العاطفة، أريده أن يشعر بأنّ ثمّة من يحبّه ويسعى من أجله. تمنّيت أن أرنو إلى اللّهِ قائلاً له: ها هم أحبابك عادوا إليك مهيضي الأجنحة، مكلومي الأفئدة... فَأَسبغْ عليهم نعمتك واشملْهم برحمتك الواسعة.

إنّي، الآن، أسير بين الجثث، فوق أرصفة بلدتنا المتّسخة الملطّخة بالقار والدمّ والبول والبراز. لا أدري ما الذي ينتظرني، لا أدري ما الذي سأفعله بعد الآن، بعد أسبوع، أو يوم، أو ساعة. تخلّيت عن آمالي الكبيرة، تخلّيت عن أحلامي الكبيرة. أصدقائي وأخوتي ومعارفي تشرّدوا، جاعوا وغادروا إلى بلاد اللّه الواسعة، ولم أعد أعرف عنهم شيئاً.. لم أعد أفكّر بصديقتي الشقراء، صاحبة أجمل شعر ذهبي في العالم، لم أعد أحلم بها تعدو بفستان أبيض هفهاف في حقل عبّاد الشمس، وهي ترتدي خفّين قماشيين، وأنا أعدو خلفها حافي القدمين بقميص مفكوك الأزرار. لم أعد أهفو إلى تنشّق عطر شعرها الأشقر، المحلول، المبلول بحبّات المطر.. لم أعد أفكّر بطبيبة الأسنان التي تمنيت أن أقبّل شفتيها المكتنزتين الحمراوين، طبيبة الأسنان التي مسحت جبيني بقطعة القطن المبلّلة بالماء.. ولم أعد أفكّر بأن أتصنّع إغماءة جديدة!

واسط (العراق)

اقرأ في العدد القادم من الآداب

- بشير القمري: مسرح الكتابة
- علي زيعور: التكهلن، أو نزعة الكهل في السلوك والتواصل.
- رجب سعد السيّد: ملامح البيئة الساحلية في القصة المصرية القصيرة.
- طه حسين يردّ على رئيف خوري (ذاكرة الآداب ١٠)
- مصطفى الكيلاني: قصيدة «الكينونة الجديدة» في راهن حركة الشعر العراقي.
- حق الاختلاف ٤: برايتنباخ يواجه... نلسون مانديلاً!
- نازك الأعرجي تكتب عن مجموعة حنان الشيخ القصصية الأخيرة.
- فضلاً عن قصص لمحمود عبد الوهاب، ومحمد منصور وغيرهما... وقصائد لآية ورهام وخالد زغريت وشعراء آخرين...

عدد الرواية العربية من الآداب

العدد ١ / ٢ من ١٩٩٧

الرجاء إرسال مساهماتكم